نظرة مبالغة في التشاؤم ، فمن الصفحة الاولى من كتابه نقرأ : « منذ القرن التاسع عشر حين ادخلت الاصلاحات المزعومة الى الامبراطورية العثمانية ، كان ثمة وزراء ودبلوماسيون غربيون ينظرون الى سياسة الشرق الاوسط بأمل في تحسن اموره ، ولكن خلال مئة السنة الاخيرة لم تشهد المنطقة استقرارا ... واذن فلعله من الاحكم ان نفترض ان الخلل في الشرق الحديث ليس امرا عارضا ، وان عدم استقراره السياسي هو بالاحرى نتيجة أزمة اجتماعية وثقافية عميقة لم تقدر مشروعات المصلحين او حسن نية المتعاطفين ان تعدل فيها او تلطف حدتها » .

هذه هي نظرة الكاتب للمنطقة وهو يبدي أسفه لان (الغرض الرصين) الذي يعتبر ان الخلل في المنطقة (مزمن) لم يعتنقه الا عدد قليل سواء في بريطانيا او في امريكا . على ان تشاؤم قدوري ليس قاصرا على المنطقة ، بل هو أشمل من ذلك. ان هذا التشاؤم يتسع لكي يضم في عتمته مستقبل الانسانية على العموم ، فلديه ان تفاؤل الليبراليين الغربيين وايمانهم بأن العالم ينزع الى التحسن وبأن في ميسور الانسان ان يساعد على تحسينه ، ومبادءهم التي توجه نشاطهم وعلى افكارها المتفائلة يقيمون علمهم السياسي — هذا كله يفسر موقفهم من منطقة الشرق الاوسط خصوصا حين ينادون بأن سلاما شاملا مستقرا سيسود العالم حين يصبح مكونا من دول قومية ديمقراطية تقدمية .

وفي رأي الكاتب أنه مهما يكن الحق في هذه المعتقدات فانها ليست مما يجب ان يعتنقه رجل الدولة بل أنها بالنسبة لهذا الاخير يجب أن لا تكون لها علاقة بعمله . ويسخر المؤلف من هذه المباديء ويقول ان يكفي الرجال العمليين ان يواجهوا الشرور الحالة وان يحافظوا على المصالح الراهنة ، ولا يسوغ لهم أن يثقلوا كواهلهم بالعقائد التاريخية او أن يجروا وراء الاوهام في تلك المتاهات التي نشرها الكلام السياسي الغربي في العالم كله .

واضح من هذا الموقف ان المؤلف يعتنق موقفا نفعيا خالصا وهو يدعو الى تعامل بين الدول والشعوب لا مبادىء تحكمه ، ومهما يكن من أمر — فالمهم هنا هو أن نتعرف كيف يطبق استاذ السياسة هذه النظرة الضيقة على ما جرى — ويجري في المنطقة — وما هو نوع المصالح التي يدعو الى المحافظة عليها .

أن أشد ما يثير الكاتب هو ما يراه منتشرا بين المثقفين ورجال السياسة الانجليز من شعور دائم بالاثم بسبب مسلك الغرب من نحو العرب بعد الحرب العالمية الاولى ليس صحيحا لديه القول بأن الامبريالية والصهيونية هما أساس عدم الاستقرار في المنطقة ، ذلك أنه يرى ان عدم الاستقرار في الشرق عميق ومزمن ولن يشفي هذا المرض اختفاء اسرائيل او ما يسمى بالامبريالية — التي يصف معاداتها بأنها تضاعف سوء الفهم وتشجع على تبني الاوهام لصالح المهيجين ومن يستخدمونهم بحيث يكون الخاسر — في النهاية — هو الراغب في السلام والمتحضر ، وهو يرى ان محاولات تحديث المجتمع في الشرق الاوسط وجعله على النمط الغربي ، ديمقراطيا — لا بد وان تجلب من المضار ما يفوق النفع .

اذن فما هي نصيحة استاذ السياسة لمواجهة هذا المرض المزمن ؟ يخصص قدوري دراسة طويلة عن (سعد زغلول) والبريطانيين فيها يتابع مسار الاحداث في مصر من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٤ وذلك من خلال برقيات الموظفين البريطانيين في مصر ، وهو يوجه النقد العنيف لاولئك السياسيين الانجليز الذي اقتنعوا بأن ثمة حركة ثورية في مصر ، ونصحوا باتخاذ مواقف متعاظمة معها ، وتعديل نظام الحماية لصالح مؤسسات مصرية يحكمها دستور ونظام برلماني ، ولديه ان هؤلاء السياسيين حسبوا أنهم — بذلك — يحافظون على المصالح البريطانية من ناحية ، وبعضهم من ناحية اخرى تصرف وفقا لعقائده الليبرالية .

فماذا كانت النتيجة ؟ « لقد استطاع اللنبي عام ١٩٢٢ ان ينتزع تصريح فبراير المشهور من حكومته في لندن التي كانت تعارض اصداره بشدة ، وبهذا بدأت التصفية الطويلة والاليمة والمهينة لمركز بريطانيا في مصر والتي انتهت باحداث نوفمبر ١٩٥٦ غير المتوقعة . »

هذا عن المصالح البريطانية . اما الليبرالية فلم تستفد شيئا من هذه التصفية ، لان ثمن حقيقة بسيطة وواضحة هي أن هذه المناطق التي يقال أنها تعاني اليوم من الامبريالية لم تعرف طول